۱۶۶۲۴

مجله	حضارة الاسلام
تاریخ نشر	
شماره	سوم سال پانزدهم
شماره مسلسل	
محل نشر	دمشق
زبان	عربی
نویسنده	احمد حسن فرحات
تعداد صفحات	۵۴ - ۶۳
موضوع	الخلافة -۲
سرفصلها	
کیفیت	
ملاحضات	

الخلافة

- ٢ -

للدكتور أحمد حسن فرحات

خلافة إيمان وتمكين وأمن :

بالاضافة الى معاني « **الخلافة** » التي سبق أن بيناها وشرحناها ، يرى المتتبع لآيات الخلافة في القرآن الكريم معنى آخر للخلافة نجد إشارة إليه في قوله تعالى : « **أمن يجيب المضطر إذا دعاه ، ويكشف السوء ، ويجعلكم خلفاء الأرض ، أإله مع الله ؟ قليلاً ماتذكرون(١)** » .

وقد رأينا فيما سبق أن خلافة الارض قد انتهت الى أمة محمد صلى الله عليه وسلم ـ أمة الدعوة ـ كما دل على ذلك قوله تعالى : « **هو الذي جعلكم خلائف الارض ورفع بعضكم فوق بعض درجات** » ، وإذا كان الأمر كذلك وقد حصلت هذه الخلافة بالنسبة للامة التي بعث اليها النبي صلى الله عليه وسلم ، كان معنى «الخلافة» في قوله تعالى : « **ويجعلكم خلفاء الارض** » يشير الى خلافة أخرى غير الخلافة الاولى ، **خلافة موعودة منتظرة** لاتتناسب أبدا مع الواقع الذي تعيشه هذه الامة التي تشرك بالله ، وكان الشرط الأول في هذه الخلافة هو **توحيد الله سبحانه والتوجه بالدعاء اليه وحده من دون الناس** فهو الذي يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض .

ولايفوتنا هنا أن ننوه بتشابه الآيتين من حيث الاضافة « **هو الذي**

(١) النمل : ٦٢ .

جعلكم خلائف الأرض » « **ويجعلكم خلفاء الأرض** » مما يشي بأن الخلافة **الاولى للامة التي بعث إليها النبي صلى الله عليه وسلم** ، والخلافة **الثانية للامة التي استجابت لدعوته** صلى الله عليه وسلم .

وهذا المعنى للخلافة المشار اليه في هذه الآية قد ورد مصرحاً به في قوله تعالى :

« **وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لايشركون بي شيئاً(١)** » .

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية : هذا وعد من الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم بأنه سيجعل امته خلفاء الأرض أي : ائمة الناس والولاة عليهم ، وبهم تصلح البلاد وتخضع لهم العباد ، وليبدلنهم من بعد خوفهم الناس أمناً وحكماً فيهم ، **وقد فعله** تبارك وتعالى ولله الحمد والمنة(٢) .

وهكذا نجد أن الخلافة في هذه الآية خلافة **خاصة موعودة للذين آمنوا وعملوا الصالحات** إذا ماحققوا شروطها من عبادة الله وحده وعدم الشرك به ، وهو نفس الشيء الذي كان يدعوهم اليه في الآية السابقة حينما كان يستنكر شركهم الذي يمنعهم من تحقيق هذه الخلافة « .. **ويجعلكم خلفاء الأرض ، أإله مع الله قليلاً ماتذكرون** » .

والخلافة بهذا المعنى خلافة **اختيارية كسبية** ، يستطيع الانسان أن يسعى للحصول عليها اذا ماسلك اليها طريقها وقام بتكاليفها وحقق شروطها ، وذلك بخلاف المعاني السابقة لـ« الخلافة » .

ولابد لنا بعد ذلك أن نقف أمام مظاهر هذه الخلافة كما تبدو من خلال هذه الآية القرآنية وهي :

١ ـ استخلاف المؤمنين كاستخلاف من قبلهم :

ويكاد يجمع المفسرون على أن المقصود بمن قبل المؤمنين هم بنو اسرائيل ، ومن هنا كان لابد لنا أن نعرف شيئاً عن استخلاف بني أسرائيل وبالتالي الذي يوضح معنى هذه الآية ويكشف عن المراد بالاستخلاف ، وذلك من خلال النصوص القرآنية نفسها :

يخبرنا الله في القرآن الكريم ان اسرائيل كانوا مستضعفين من

(١) النور : ٥٥ .

(٢) تفسير ابن كثير : ج/٣/ ص : ٣١٤ .

جاء في الجزء الثاني من صبح الاعشى : قال المعافى بن اسماعيل في تفسيره :

وقد روي أن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ سأل طلحة والزبير وكعبا وسلمان عن الفرق بين **الخليفة والملك** .

فقال طلحة والزبير : لا ندري .

فقال سلمان : **الخليفة : الذي يعدل في الرعية ، ويقسم بينهم بالسوية ، ويشفق عليهم شفقة الرجل على أهله ، والوالد على ولده ، ويقضي بينهم بكتاب الله تعالى** .

فقال كعب : ما كنت أحسب أن في هذا المجلس من يفرق بين **الخليفة والملك ، ولكن الله الهم سلمان حكما وعلما** .

الخلافة شرعنا ، والملك شرع من قبلنا :

ان المطالع لكتاب الله تعالى يرى أن الله سبحانه ، قد شرع للامم السابقة **النبوة مع الملك** ، وذلك أن النبوة تقيد الملك وتمنع فساده وظلمه ، ومن هنا كثر الانبياء والملوك في الامم السابقة وكما نلاحظ هذا جليا في بني اسرائيل ، حيث يقول تعالى ممتنا عليهم : « **اذكروا نعمة الله عليكم اذ جعل فيكم انبياء وجعلكم ملوكا** »(١) .

هذا في حين لم يشرع لنا الملك ، وانما شرع لنا الخلافة فقط ، والخلافة : **سير على منهاج النبوة** . وحيث أن النبوة قد ختمت بمحمد صلى الله عليه وسلم لم يكن بد من السير على منهاجها ، ولا يجوز أن يكون هناك ملك ، لانه ليست هناك نبوة جديدة توقفه عند حده وتمنع ظلمه عن الناس .

ومن هنا لا نجد في نصوص القرآن والحديث الصحيح وأقوال الصحابة مايضيف الملك الى المسلمين(٢) ، بل نجد ان كل هذه النصوص تضيف مصطلح الخلافة وهذا يدل دلالة قاطعة على ان « **الخلافة** » **هي شريعة هذه الامة** .

فمن الاحاديث التي تخبر عن تطور هذا الامر بالنسبة للمسلمين ما ذكره ابو داود الطيالسي قال :

حدثنا جرير بن حازم ، عن ليث عن عبد الرحمن بن سابط ، عن أبي ثعلبة الخشني ، عن أبي عبيدة بن الجراح ، ومعاذ بن جبل عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : ان الله بدأ هذا الامر **نبوة ورحمة ، وكائنا خلافة ورحمة ، وكائنا ملكا عضوضا ، وكائنا عزة وجبرية وفسادا في الامة** ، يستحلون الفروج والخمور ، والحرير ، وينصرون على ذلك ، ويرزقون ابدا حتى يلقوا الله عز وجل »(١) .

ومن الاحاديث التي تفرق بين الخلافة والملك ، ما رواه الحافظ البيهقي من حديث عبد الله بن الحارث بن محمد بن حاطب الجمحي عن سهيل بن أبي صالح ، عن ابيه عن ابي هريرة قال :

قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

يكون بعد الانبياء **خلفاء ، يعملون بكتاب الله ، ويعدلون في عباد الله** ، ثم يكون من بعد الخلفاء **ملوك ، ياخذون بالثار ويقتلون الرجال ، ويصطفون الاموال** ، فمغير بيده ، ومغير بلسانه ، وليس وراء ذلك من الايمان شيء» (٢) .

ومما يدل على أن الله قد شرع لنا الخلافة وحدها ما ورد في صحيح البخاري من حديث شعبة ، عن قراب القزاز ، عن ابي حازم ، عن أبي هريرة ، عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال :

كانت بنو اسرائيل تسوسهم الانبياء ، **كلما هلك نبي خلفه نبي** ، وانه لانبي بعدي ، **وانه سيكون خلفاء فيكثرون** .

قالوا : يارسول الله فماذا تأمرنا ؟

قال : **فوا ببيعة الاول فالاول** ، واعطوهم حقهم ، فان الله سائلهم عما استرعاهم(٣) » .

ولعل من المناسب بعد هذا البحث أن نذكر بعض اللطائف والآثار التي تؤكد ما انتهينا اليه من شرعية الخلافة لهذه الامة دون الملك .

لطيفة من « ثمار القلوب » للثعالبي :

كان ابو الفتح البستي يستحسن قولي في كتاب « المبهج » : الملك : **خلافة عن الله في عباده وبلاده . ولن تستقيم خلافته مع مخالفته** .

وفي ترجمة ابي عبد الله المقري التلمساني من « تكملة الديباج » عنه انه قال :

سألني بعض الفقراء عن سوء

(١) المائدة : ٢٠ .

(٢) ورد في بعض الاحاديث اضافة الملك للمسلمين على سبيل الاستنكار ، كما ورد في بعضها الآخر اضافته على سبيل الاخبار بما تؤول اليه الامور في المستقبل ، والمقصود بنفي اضافتها ، اي على سبيل الاستحسان والمشروعية .

(١) شمائل الرسول : لابن كثير ، ص : ٣٨٢ ـ تحقيق مصطفى عبد الواحد ـ طبعة الحلبي

(٢) شمائل الرسول : لابن كثير : ٣٨٢ ـ تحقيق مصطفى عبد الواحد ـ طبعة الحلبي

(٣) شمائل الرسول : لابن كثير : ٣٨١ ـ تحقيق مصطفى عبد الواحد ـ طبعة الحلبي

المسلمين في ملوكهم ، اذ لم يليهم من سلك بهم الجادة ، بل من يغتر بدنياه ، غافل عن عقباه ، لا يرقب في مؤمن الا ولاذمة ، فأجبته : بأن الملك ليس في شرعنا ، بل هو شرع من قبلنا ، قال تعالى ممتنا على بني اسرائيل : « وجعلكم ملوكا(١) وقال : «قد بعث لكم طالوت ملكا»(٢) وقال : « وهب لي ملكا »(٣) . ولم يشرع لنا الا الخلافة .

فابو بكر خليفته عليه السلام ، كما فهم الناس عنه واجمعوا عليه ، او استخلف عمر ، فخرج عن طريق الملك الذي يرثه ولد عن والد الى الخلافة التي هي النظر والاختيار . ثم اتفق اهل الشورى على عثمان ، واخرجها عمر عن بنيه ، لانها ليست ملكا . ثم تعين علي بعد اذ لم يبق مثله ، فبايعه من آثر الحق على الهوى ، والآخرة على الدنيا ، ثم الحسن كذلك .

ثم كان معاوية اول من حولها ملكا ، والخشونة لينا ، ثم ان ربك بعدها لغفور رحيم . فصارت ميراثا ثم لما خرجت عن وصفها لم تستقم ملكا .

وكان عمر بن عبد العزيز خليفة ، لان سليمان آثر حق المسلمين فرغب عن بني ابيه ، وعلم اجتماع الناس اليه .

فلم يسلك طريق الاستقامة الا خليفة . واما الملوك فكما ذكرت الا من قل ، وغالب حاله غير مرضي» .

ومن اللطائف التي تبين قيود طاعة اولي الامر ، ما قاله الحافظ في اول كتاب « الاحكام » من الفتح :

ومن بديع الجواب قول بعض التابعين لبعض الامراء من بني امية لما قال له : اليس الله امركم ان تطيعوني في قوله : « واولي الامر منكم » ؟

فقال له : اليس قد نزعت عنكم اذا خالفتم الحق بقوله : « فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول ، ان كنتم تؤمنون بالله .. » .

قال الطيبي : اعاد الفعل في قوله : اطيعوا الرسول ، اشارة الى استقلال الرسول بالطاعة . ولم يعده في «اولي الامر » اشارة الى انه يوجد فيهم من لا تجب طاعته . ثم بين ذلك بقوله : « فان تنازعتم في شيء» كانه

(١) المائدة : ٢٠ .
(٢) البقرة : ٢٤٧ .
(٣) ص : ٣٥ .

قيل : « فان لم يعملوا بالحق ، فلا تطيعوهم ، وردوا ما تخالفتم فيه الى حكم الله ورسوله »(١) .

الخلافة .. والمصطلحات الحديثة :

ولا بد ان نشير في نهاية هذا البحث الى ان مصطلح «الخلافة» هو المصطلح القرآني الذي لا يجوز لنا العدول عنه في موضوعه الى اي مصطلح آخر . وان ما يلجأ اليه بعض الناس عن حسن نية او سوء نية من استعمال مصطلحات اخرى في هذا الموضوع لشبه جزئي او عارض بينها وبين الاسلام ـ لا يخدم الفكرة الاسلامية ، وانما يغبشها ويشوشها في ذهن القارىء ، وقد يؤدي الى تحريفها وهدمها ، ذلك ان لكل نظام فلسفته ومصطلحاته ، ومن الخطأ الكبير استعارة المصطلحات من نظام الى نظام آخر .

ان الاسلام عقيدة استعلاء ، من اخص خصائصها انها تبعث في روح المؤمن بها احساس العزة من غير كبر ، وروح الثقة من غير اغترار ، وشعور الاطمئنان في غير تواكل . وانها تشعر المسلمين بالتبعة الانسانية الملقاة على كواهلهم ، تبعة الوصاية على هذه البشرية في مشارق الارض ومغاربها ، وتبعة القيادة في هذه الارض للبشرية الضالة ، وهدايتها الى الدين القيم والطريق السوي ، واخراجها من الظلمات الى النور بما آتاهم الله من نور الهدى والفرقان : (كنتم خير امة اخرجت للناس تامرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) .. « وكذلك جعلناكم امة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » .

(١) يراجع في هذه اللطائف والاخبار كتاب « التراتيب الادارية » لعبد الحي الكتاني .